

شمولية النص الحسيني في واقعة الطف
(نظرة إلى بناء النص، وتكوين الدلالة)

Universality of the Husseinist Text in
Al-Taff Battle
(Vision on Erecting the text and
Semantics)

أ.د. سلافة صائب خضير

جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم

الإنسانية / قسم اللغة العربية

Prof.Dr. Salafa Saab Khudheir Department
of Arabic College of Education/Ibn Rushd for
Human Sciences University of Baghdad

sulafasaeb@yahoo.com

خضع البحث لبرنامج الاستئصال العلمي

Turnitin - passed research

الملخص:

وقف الإمام الحسين عليه السلام أمام العالم، في وقت احتاجت البشرية إلى من يصحح مسيرتها، فهو مصلحٌ أرسله الله - سبحانه وتعالى - للأمة عارفٌ بوجوب النهضة لسد باب المنكر، وإذا ظهر من يدعو للنهضة الإسلامية السامية كان واجبا على الأمة أن يتبعوه بعد أن يدعوهم إلى التوبة، ثم الرجوع إلى جادة الصواب، وبعد النظر إلى النص الحسيني وما فيه من إبداع لغوي، وجدت بناءً لافتا للنظر يؤدي إلى دلالة خاصة، تضم مضامين مهمة على الصعيدين اللغوي والمعنوي، تبدأ من الشكل اللغوي، ليؤثر بالمعنى؛ لتبقى مدرسة للوعظ والإرشاد. وتوجد خصائص في النص الحسيني تتجلى في كثافة الوحدات النصية التي تصف الواقع الذي تشكّل حول الإمام الحسين عليه السلام في ذلك الوقت، وهناك تلاحق في وظائف التراكيب، مما يولد اختصار زمن الإحاطة بالشكل الذي تتطلع إليه عيون المتلقي في مقابل طول زمن إدراك المضمون الذي يتعلق بذهنه؛ لأنه حين يدرك قدسية مضامينه، يكون قد دخل في النص واتحد معه.

ووجدت حالة من التشاكل والتباين تعتمد على شبكة من العلاقات الدلالية المتلاحمة سواء أكانت بنوية، أم دلالية، أم تعبيرية، أم علاقات تشابه أو اختلاف. ونجد المفارقة في الدلالة المحولة في مقابل دلالة النص الأولى، مما يعطي تجسيدا آخر للمعنى، وهي حالة تعتري الكلام، وهي تفسير له، وترتبط بتحسين الكلام، بعد عقد علاقات متضادة بين مفردات النص، وبهذا يبتعد النص عن المباشرة، والقصدية وإصلا إلى التلميح والإشارة، مما يحقق لغة إبداعية تخرجه من المؤلف إلى غير المؤلف.

ثم التشكيل الصوتي المتمثل بأسلوب النهي، وأسلوب الاستفهام، والاستفهام الإنكاري، وأسلوب النفي، والتقابل السياقي، والحذف؛ وهذه الأمور كلها تحقق نصا إبداعيا يبهير

Abstract

Imam Al-Hussein (peace be upon him) stood before the world, at a time when humanity needed to correct its march, he is a reformer sent by Allah the Almighty to the nation for the sake of virtue. When scrutinizing the Husseinist text and its linguistic creativity, it is to find a remarkable construction leading to specific significance, important contents at the linguistic and moral levels, beginning with the linguistic form, to influence the meaning; as a school for preaching and guiding. There are properties in the Husseinist text reflected in the density of the textual units that describe the reality Al-Hussein experienced Hussein at that time.

There is a state of confusion and variance based on a network of interrelated semantic relationships, whether they are structural, semantic, expressive, or similar relations or differences. The paper finds the paradox in the transferred significance of the first text, which gives another embodiment of the meaning, a state of speech, which is an interpretation, and is linked to the improvement of speech. Then the phonetic formation rises to surface and represented by the prohibition, the methods of questioning, negation, contextual convergence and deletion. All these things are achieved by an innovative text that captures the interlocutors and introduces him into this creative linguistic world.

بين يديّ البحث :

نهض الإمام الحسين عليه السلام نهضة عظيمة ، صحح فيها مسار المجتمع البشري وأعادته إلى نصابه ، فهو المصلح الذي أرسله الله - سبحانه وتعالى - إلى الأمة ليجفف منابع الشر ، وهو العارف بالنفوس ، والعارف بوجود النهضة لسد باب المنكر ، والنهي عنه ، وإذا ظهر من يدعو للنهضة الإسلامية السامية كان واجبا على الأمة أن تتبعه بعد أن يدعوها إلى التوبة والصلاح ، ثم الرجوع إلى جادة الصواب ، ولما أراد الإمام الحسين عليه السلام النهوض لم يجد من يتبعه على ذلك سوى « النزر المؤلف من شيوخ وصيبة ورضع ونساء مع العلم بأن مقابليه لا يرقبون فيه إلّا ، ولا ذمة قادمين على استئصال شأفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أهله وذويه ، لكن سياسة شهيد الطف التي لا يدرك مداها وتنحسر العقول عن تفسير مغزاها عرّفت الأجيال الواقفين على هذه الملحمة التي لم يأت الدهر بمثلتها بأعمال هؤلاء الجبابرة الذين لم يسلم أسلافهم حين أظهره إلا فرقا من سيف الإسلام ، وقد أصاب أبو عبد الله عليه السلام شاكلة الغرض يوم تقشعت سحب الأوهام بأنوار نهضته الوضيئة وهتاف حرمه الذي بلبل الأفكار وأقلق الأدمغة حتى راحت الأندية تلهج بما احتقبه هؤلاء الطغاة ومن قبلهم من الشنار والعار ^(١) .

عند قراءة الخطب والرسائل التي قالها الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطف ، سنجد أنها تضم مضامين مهمة على الصعيدين اللغوي والمعنوي ، تبدأ تلك المضامين من الشكل اللغوي ، لتؤثر فيما بعد بالمعنى ، وهي معين لا ينضب من الأفكار التي سيقّت ؛ لتبقى على مرّ الدهور مدرسة للوعظ والإرشاد ، وطريقا للتربية والإصلاح ، والنظر إلى هذه النصوص الخالدة عمل يحتاج إلى قراءة تتنوع مشاربهم وتختلف نزعاتهم وميولهم ؛ غير أنني أريد أن أدلي بدلوي مع من ينهل من هذا النبع

الحسيني الرقراق الخالد إلى يوم القيامة ، محاولة بذلك تفكيك آليات الأسلوب الحسيني البارع ؛ لأعرضها أمام القاريء من خلال جملة معطيات مهمة أسهمت في بناء النص الحسيني .

ينماز النص الحسيني من غيره بأمرين يحددان بدءاً مكانة هذا النص هما :

- القدسية : وهذه القدسية تجعله طريقاً ممهداً يفيد منه من يريد الإصلاح لنفسه وللآخرين .

- التجدد : وعلى الرغم من قدم هذا النص إلا أنه استطاع أن يواكب العصور التي تلتها عصراً فعصراً ، متجاوزاً الأيام والسنين ، مقدماً الفكرة التي تثبت صوابه ، والموقف البطولي المبدي الذي وقفه صاحبه عليه السلام المذكور على رؤوس الأشهاد إلى يوم يبعثون .

والتأمل في النص الحسيني يجده عبارة عن صرح لغوي بُني بتناسق وقدرة على لفت انتباه المتلقي ؛ لتشكل هذه الالتفاتة خط تماس أولي يشير الحس الإنساني ، متزامناً مع الإبداع اللغوي ، ومن هنا فقد شكّل الإمام الحسين عليه السلام في خطبه ورسائله وعي المتلقي من خلال نتاج أدبي يضمن تشكل قدرة الإصغاء عند المتلقي بعد أن يكثف المعنى الذي يريد أن يعرضه بمجموعة من الكلمات ، التي تنتظم في تركيب قواعد متعدد الأغراض ، لكنه ذو دلالات تحدد القصد الذي أرادته على وجه التخصيص ، فلو رحنا نبحت عن هذا الأمر في النص الحسيني ، سنجد كلماته معبرة عن قصد المتكلم ، مثال ذلك قوله عليه السلام عندما مرّ بالتنعيم ؛ فلقي بها عيراً قد أقبل بها من اليمن ، وعلى العير الورس والحلل ، فأخذها عليه السلام ثم قال لأصحاب الإبل : " لا أكرهكم

، مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْضِيَ مَعَنَا إِلَى الْعِرَاقِ أَوْفِينَا كِرَاءَهُ وَأَحْسِنَا صَحْبَتَهُ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَفَارِقَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا أَعْطَيْنَاهُ مِنَ الْكِرَاءِ عَلَى قَدْرِ مَا قَطَعَ مِنَ الْأَرْضِ ، قَالَ : فَمَنْ فَارَقَهُ مِنْهُمْ حَوْسِبَ ، فَأَوْفَى حَقَّهُ ، وَمَنْ مَضَى مِنْهُمْ مَعَهُ ، أَعْطَاهُ كِرَاءَهُ وَكِسَاهَهُ (٢) .

فكلمة الكراء هي كل متماسك داخل شكل لغوي عام ، على الرغم من كونها تعبيراً خاصاً ، وفي الكل نجد المضمون يتماسك مع بعضه ؛ ليكمل الفكرة المعروضة أمام المتلقي ، فالكراء أجر المستأجر ، ويقال للأجرة نفسها كراء (٣) ، وليس للكلمة بديل فلو استعملنا كلمة أجرة لتقع في هذا الموقع ، عندها سيشعر الشخص أنه أجير لا قيمة له ، والحق أن الإمام الحسين عليه السلام ينظر لكل إنسان على أنه قيمة عليا يوفيه حقه ويعطي كل شخص ما يستحقه على عمله ، وبهذا يبدو النص الحسيني مُنتجاً متصلاً بالقاعدة الاجتماعية التي نتج عنها .

وقاريء النص الحسيني يجد نفسه واقعا في علاقة تبادلية معه ، تبدأ من الكلمات ، وتجاورها مع بعضها ثم تأخذ آفاقا بعيدة وجديدة ، متشكلة من أحواله الاجتماعية ، وتوجهاته الأيدلوجية ، وميوله الثقافية ، وتبرز أمام القاريء القضايا المتعلقة باللغة شيئا مهما مؤثرا فيما يتعلق في نفسه مما يقرأه أمامه ، مما يجعله منتجا لفهم جديد متجدد ، وليس قارئاً سلبياً غير منتج .

مميزات النص الحسيني تتجلى في :

- استقلال الوحدات النصية التي تصف الواقع وتكثيفها ، فهي تصف العالم الذي تشكّل حول الإمام الحسين عليه السلام في ذلك الوقت ، ولكن تلك الوحدات تمتاز بكونها مقتصدة وقليلة ، لكنها تمتلك مخزوناً يظهر متكاثراً على الصعيدين الدلالي والشكلي

، ويلاحظ هذا الأمر عندما علم الإمام عليه السلام بمقتل قيس بن مُسَهر الصيِّداوي الذي ألقى من طمار قصر ابن زياد ، وعندها « ترقرت عينا الحسين عليه السلام ، ولم يملك دمه ثم قال : (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)^(٤) . اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نُزُلًا . واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك ورغائب مذخور ثوابك »^(٥) .

كان مطلع كلام الإمام الحسين عليه السلام الآية الكريمة ، التي هي حال الإمام عليه السلام ، وحال أصحابه الذين آمنوا معه بالقضية ، ومنهم من سبق إلى الشهادة ، ومنهم من ينتظرها ، وهو على علم اليقين بأنه سينالها ، وتحمل عبارة (اجعل لنا ولهم الجنة نزلا) معاني كثيرة ، فالوصول إلى الجنة يمر بطريق طويل يبدأ بالعيش حياة جهادية مملوءة بالسعي نحو نيل الشهادة قولاً وفعلاً ، ثم اختار كلمة (نزلا) ، أي ضيافة وعطاء وتكرمة^(٦) ، ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام يريد الجنة مكاناً للعيش أو الإقامة فقط ، وإنما أرادها مكاناً للضيافة والعطاء والتكريم من الله -جل وعلا-؛ أي هو لم يرد موتاً طبيعياً يدخل بعده صاحبه الجنة ؛ لأنه كان إنساناً مؤمناً ، وإنما أراد موتاً شريفاً لا يتحقق إلا في حال الجهاد في سبيل الله تعالى ، والاستشهاد في سبيل الحق ، وعندها سيكون القادم على الله -سبحانه وتعالى- ضيفاً معززاً مكرماً ، يعيش في الدرجات العلا من الجنان ، ويسعد بالقرب من أنوار الرحمن ، ويستمر التكثيف في النص الحسيني ؛ إذ نجد في عبارة (اجمع بيننا وبينهم) سؤالاً ملحاً ، هو: هل (الجمع) الذي عناه الإمام الحسين عليه السلام في حالة الاستشهاد ؟ أو في الدرجات العليا في الجنة ؟ ويبدو لي أن الحالتين صحيحتان ، فالجمع معه في الاستشهاد يؤدي إلى الجمع معه في الجنة. ثم نجد عبارة (رغائب مذخور ثوابك) ، ويبدأ التكثيف في كلمة رغائب التي هي جمع كلمة رغبة ، وتعني العطاء الكثير ، وأضاف إليها مذخوراً أي مدخراً

، ثم أضاف إليها ثوابك ، وكلها تختزل معاني الخير الكثير الذي وعد الله تعالى به عباده الصالحين .

- والميزة الأخرى هي التلاحق في وظائف التراكيب ، فولّد ذلك اختصار زمن الإحاطة بالشكل الذي تتطلع إليه عيون المتلقي في مقابل طول زمن إدراك المضمون الذي يتعلق بذهنه ، وتتجلى هذه الخصيصة في النص الحسيني بشكل عام ، ومن ذلك قوله عليه السلام : « إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون ، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكرت ، وأدبر معروفها واستمرت جدا ، فلم يبقَ منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء ، وخسيسُ عيشٍ كالمرعى الوبيل ، ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ! ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً ، فإنني لَأرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا برماً » ^(٧) . ومع إجمالة النظر في النص المذكور آنفا نجد أننا أدركنا المطلوب أن نفهمه منه ، وهو أمر ليس صعبا ، لكن ما حصل أن معاني كثيرة علقنا في أذهاننا بشكل كبير ، بل نجد حكمة في النص دائمة التكرار في حياتنا منذ ذلك الزمان حتى وقتنا هذا ، فقوله عليه السلام : (إن الدنيا قد تغيّرت وتنكرت ، وأدبر معروفها ، واستمرت جدا) ، تبدأ العبارة بكلمة (إنّ) التي تؤكد مضمون الفكرة بشكل عام ، ثم (قد) التي زادت التوكيد بأن الدنيا قد تغيّرت بعد أن كانت زمنا طويلا سائرة على النهج الصحيح ، والوضع القويم ، يكون فيه صاحب الحق في مكانه الصحيح ، ولا يوجد من يطالب بحق ليس له ، لكن الدنيا لم تكتفِ بالتغيير ، بل هي تنكرت ، ولهذا الفعل معاني كثيرة في معاجم العربية فمنه تنكر لمن أحسن إليه ، أي أساء إليه على الرغم من إحسانه ، ومنه تنكر لأفكاره ولم يعد يؤمن بها ، أنكرها وتخلّى عنها ، وتنكر الرجل إذا ساءت أخلاقه .. وغيرها من المعاني ^(٨) . وقد اجتمعت المعاني كلها في التركيب الذي ضمه النص الحسيني ، فالدنيا تنكرت وغيرت ملبسها ، ووجهها

وساءت أخلاقها ، وذهب معروفها ، فصارت مرة لا يستساغ طعمها ، واستمر الشيء وجده مُرا^(٩) وهذا كله معتمد على التجسيد الذي جعل الدنيا شخصا يقبل ويرفض ، بل يتنكر لما يرى أمامه من أمور .

وبعد هذا التركيب تركيب آخر يفسر فيه الإمام الحسين عليه السلام معنى تنكر الدنيا ، ومرارتها بقوله : فلم يبقَ منها إلا صباية كصباية الإناء ، وهي بقيته القليلة من الماء ونحوه ، وهي بلا قيمة لقلتها ، ويبدو لي كذلك أن هذه هي نبوءة الإمام عليه السلام بما بقي من عمره الشريف ، فهو عالم أنه قادم على يوم استشهاده ، بل إن التركيب الذي يليه كان (وخسيس عيش كالمرعى الوبيل) وهو المعنى نفسه الذي عناه الإمام الحسين عليه السلام في التركيب الذي قبله ، لكنه هنا أكثر إيغالا في ذكر المضمون الذي يريد الوصول إليه ، فهنا شبه الدنيا بالمرعى الذي أكَل ، حتى لم يبقَ منه شيء فصار بلا قيمة ولا فائدة .

- والنص الحسيني يُدخل من يقرأه في حالة استسلام لخياله ، فهو يدرك قدسية مضامينه ، يكون قد دخل عوالم النص واتحد معه ، وعاش في ظلال ألفاظه التي تبدو مفعمة بكثير من المعاني البناية ، ويتجلى هذا الأمر واضحا في كتابه إلى أشرف البصرة قال فيه : « أمّا بعد ، فإنَّ الله اصطفَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، وآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى خَلْقِهِ ، وأَكْرَمَهُ بِنُبُوَّتِهِ ، واختارَهُ لرسالته ، ثمَّ قبَضَهُ اللهُ إِلَيْهِ وقد نَصَحَ لعباده ، بَلَّغَ مَا أَرْسَلَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ ، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وأحقَّ الناسِ بمقامِهِ في النَّاسِ ، فاستأثَرَ علينا قومنا بذلك ، فرَضِينا وكرهنا الفرقة ، وأحببنا العافية ، ونحنُ نعلمُ أَنَّا أحقُّ بذلك الحقِّ لمستحقِّ علينا ممن تولاهُ ، وقد أحسنوا وأصلحوا ، وتحروا الحقَّ ، فرحمهم اللهُ ، وغفر لنا ولهم ، وقد بعثتُ رسولي إليكم

بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم إلى كتابِ الله ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنَّ السنتَ قد أُميتت ، وإنَّ البدعةَ قد أُحييت ، وإنَّ تسمعوا قولي وتطيعوا أمرِي أهدكم سبيلَ الرشادِ ، والسلامِ عليكم ورحمةُ الله ” (١٠) .

ذكر الإمام الحسين عليه السلام حقيقة مهمة مؤكدة ، وهي نبوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ثم ذكر أنه قبض تاركا رسالته ، وأهله وأولياءه وورثته ، وهو بهذا يذكر بمن هو أحق الناس بولاية أمور المسلمين ، لكنه عليه السلام كره الفرقة ، وأراد العافية له وللمسلمين كلهم ، وهو عليه السلام يدعو المسلمين لكتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأن السنة قد تركت ، والبدعة صارت حية تتحكم بحال الناس ، وهو عندها يذكرهم بأن إطاعته هي هداية لسبيل الرشاد . ويختتم كلامه بالسلام ليدل على أنه هادٍ للسلام . وقارئ النص يجد نفسه داخل حلقة تحسسه بحياة الإسلام بصورة سريعة ، ومن يدرك حقيقة الإسلام يفهم حقيقة أن الإسلام الحق كان يسير بصورة صحيحة حتى حرّفه عن مساره المحرّفون .

- واستشراف المستقبل ، وجمع الأزمنة جميعها في نص واحد ، يميلنا إلى النظر إلى الأمور في اتجاهين : أولهما من الحاضر إلى الماضي ، ومن ثم النظر من الحاضر إلى المستقبل . مثال ذلك قول الحسين عليه السلام لأخته زينب (عليها السلام) عندما سمعت الصيحة : « إني رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقال لي : إنك تروحُ إلينا ، قال : فلطمتُ أختَهُ وجهَهَا وقالت : يا ويلتنا ! فقال : ليس لك الويلُ يا أختية ، اسكني ، رحمتُ الرحمنُ ! » (١١) ، وهذه الأمور المذكورة أنفا تتحقق بأموال تبدو جلية في النص الحسيني هي :

ثنائية التشاكل والتباين في النص الحسيني :

هي من المصطلحات المهمة التي ظهرت في الدراسات الأدبية ، والتشاكل هو مجموعة مترابطة من المقومات المعنوية التي تحقق نظرات متشاكله للحكاية بعد قراءات جزئية تساعد في حل إبهامها عند البحث عن قراءة سيميائية^(١٢) ، أي إنه « كل تكرار لوحدة لغوية مهما كانت ، ... ويمكن أن يندرج ضمن متتالية لغوية لبعد أدنى ، أو أكبر من الجملة أو يساويها ، كما يمكن أن يظهر على أي مستوى من مستويات النص ، ... المستوى الصوتي ، ... والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي »^(١٣) . وعرف التشاكل كذلك بأنه « مجموعات محددة من وحدات الدلالة المؤلفه من تكرار لمقومات متماثلة ، ومن غياب مقومات مبعده في موقع تركيب تحديدي »^(١٤) . ومن هنا فإن التشاكل يتحقق من خلال التراكم المعنوي في النص لرفع الإبهام عنه ، ثم صحة القواعد التركيبية المنطقية^(١٥) . فالتشاكل ينتج من تعدد الوحدات اللغوية المكونة للنص ، بعد ذلك يؤدي التشاكل إلى فهم موحد للنص ، ويُظهر التشاكل الارتباط والانسجام في النص ، وهو بذلك يوضحه ، ويزيل إبهامه ويضع اليد على مواطن الإبداع فيه من خلال ألفاظه ، وتراكيبه ، ودلالاته ، وصوره . والتشاكل « لا يحصل إلا من تعدد الوحدات اللغوية المختلفة ومعنى هذا أنه ينتج عن التباين ، فالتشاكل والتباين إذن لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، وإنه يحصل به الفهم الموحد للنص المقروء ، وهو الضامن لانسجام أجزائه وارتباط أقواله ، وإنه يتولد عنه تراكم تعبيرى ومضمونى تحتمه طبيعة اللغة والكلام »^(١٦) . فالتشاكل والتباين متلازمان وقراءة النص قراءة تراعيهما هي الضامنة لانسجام أجزاء النص وترابطها . والعلاقات المتشابهة التي تجعل النص مترابطا تحقق التشاكل ، وتتساوى في ذلك مكانة العلاقات الصوتية ، والتعبيرية والتركيبية والشكلية ، أما العلاقات التي توجد التنافر في النص فانها تحقق تباينا . فلو قرأنا قوله ﷺ - وهو يخطب -

عندما عزم على الخروج إلى العراق : « الْحَمْدُ لِلَّهِ وَمَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَسَلَّمَ ، خُطَّ الْمَوْتُ عَلَى وَلَدِ آدَمَ مَخَطَّ الْقَلَادَةِ عَلَى جِيدِ الْفَتَاةِ ، وَمَا أَوْلَهَنِي إِلَى أَسْلَابِي اشْتِيَاقُ يَعْقُوبَ إِلَى يَوْسُفَ ، وَخَيْرِي لِي مِصْرَعُ أَنَا لِأَقِيهِ ، كَأَنِّي بِأَوْصَالِي تَقَطَّعُهَا عَسَلَانُ الْفُلُواتِ بَيْنَ النُّوَابِسِ وَكَرْبَلَاءَ ، فَيَمْلَأُنْ مِنِّي أَكْرَاشًا جَوْفَا ، وَأَجْرِبَةُ سَغْبَا لَا مَحِيصَ عَنْ يَوْمٍ خُطَّ بِالْقَلَمِ رَضِيَ اللَّهُ رِضَانًا أَهْلَ الْبَيْتِ ، نَصَبْرُ عَلَى بَلَائِهِ وَيُوفِينَا أَجُورَ الصَّابِرِينَ ، لَنْ يَشُدَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ لِحِمَّتِهِ ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُسِ تَقْرَبُهُمْ عَيْنُهُ ، وَيَنْجِزُ لَهُمْ وَعْدَهُ مَنْ كَانَ فِينَا بِأَذَلَا مَهْجَتُهُ ، وَمَوْطِنَا عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ نَفْسَهُ فَلْيِرْحَلْ فِينِي رَاحِلٌ مُصْبِحًا فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ » (١٧).

يبدأ التشاكل في قوله عليه السلام الحمد لله ، وما شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فكل جملة تكمل أختها وتتصل بها اتصالا لا انفصال بعده ، من خلال تكرار لفظ الجلالة ، الذي يعطي السامع قدرا كبيرا من التنبيه للكلام الذي سيسمعه ، ثم يتكرر لفظ الجلالة مرة ثانية بعد كلمة صلى لتحقيق التباين لكنه ، هيا ذهن السامع لأمر جليل هو أن الموت أمر محتوم على كل ولد آدم ، وهو قريب من البشر مثلما القلادة تحيط برقبة الفتاة ، وكأن الحسين عليه السلام يحدد الخطوط العامة التي ستحصل له بعد ذهابه إلى العراق ، وفي نهاية الخطبة يتكرر لفظ الجلالة بألية معكوسة ، فيظهر التكرار متتابعا في النهاية .

ويدرك معنى التباين والتشاكل في قول الحسين عليه السلام : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى خَلْقِهِ ، وَأَكْرَمَهُ بِنَبِيِّتِهِ ، وَاخْتَارَهُ لِرِسَالَتِهِ ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَقَدْ نَصَحَ لِعِبَادِهِ ، وَبَلَغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكُنَّا أَهْلَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ ، وَأَوْصِيَاءَهُ وَوَرِثَتَهُ وَأَحَقُّ النَّاسِ بِمَقَامِهِ فِي النَّاسِ ، فَاسْتَأْثَرَ عَلَيْنَا قَوْمُنَا بِذَلِكَ ، فَرَضِينَا ، وَكَرِهْنَا الْفِرْقَةَ ، وَأَحْبَبْنَا الْعَافِيَةَ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّا أَحَقُّ بِذَلِكَ الْحَقِّ

لمستحقِّ علينا ممن تولاهُ ، وقد أحسنوا وأصلحوا ، وتحروا الحقَّ ، فرحمهم اللهُ وغفر لنا ولهم ، وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتابِ ، وأنا أدعوكم إلى كتابِ اللهِ وسنَّةِ نبيه صلى اللهُ عليه وآله وسلم ، فإنَّ السنَّةَ قد أميتتْ ، وإنَّ البدعةَ قد أحييتْ ، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمرِي أهدكم سبيلَ الرشادِ ، والسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ ”
(١٨)

هنا نجد تباينا معنويا بين طرفي الوحدة اللغوية ، رضيينا وكرهنا ، وأميتت وأحييت ، فالكلمتان تتباينان معنويا لتناقض معناهما ، والتباين يحقق الفكرة من موقف الحسين عليه السلام الموافق للحق ، وموقف الآخرين المتجنبين له . محققا في النص كلة معنى القبول والرفض . ونلاحظ التشاكل في النص من خلال قوله ﷺ اصطفى وأكرم ، أهله وأولياءه ، رضيينا وكرهنا الفرقة ، أحسنوا وأصلحوا ، تسمعوا وتطيعوا ، مما يوحي بتراطب النص في أبعاده كلها .

و« التشاكل فرع من فروع السيميائية ، وغايتها تلخيص في خدمة الدلالة عبر الجملة ، و... عبر النص ، و... عبر الخطاب الأدبي . فهي إذن تستخدم في الكشف عن العلاقة الدلالية ، بواسطة الإجراءات التحليلية ، لتتخذ معنى مخصوصا يجب أن يتسم بالجدة ، والتشاكل يتألف من مكررات ... أو متواترات ، عبر سلسلة تراكيبية ، كما يتألف من أصناف سيميائية تحفظ للخطاب الملفوظ تناسقه . وبناء على ذلك فإن أي تركيب يمكن أن يجمع في نفسه صورتين معنويتين في الأقل ، فيعد السياق الأدنى الذي يتيح تشاكله » (١٩).

وبناء على ما سبق يبدو أن قراءة النص الحسيني تفتح ذهن السامع على شبكة العلاقات الدلالية المتلاحمة سواء أكانت بنيوية أم دلالية أم تعبيرية أم تتصف

بالتشابه أو بالاختلاف .

وما يحقق التشاكل في النص الحسيني ظاهرة التكرار التي تتحقق بالألفاظ نفسها لكن معانيها في كل جملة تتغير على وفق السياق الجديد، مما يحقق قيما دلالية ومعنوية تتوافق مع الآلام التي يقاسيها المتلقي نتيجة الإحساس بالموقف الجلل الذي قاساه الحسين عليه السلام، ونجد في النص الحسيني التكرار مميّزًا، فنجد فيه المعاني الراقية، واللغة المباشرة ثم المفردات ذات الأبعاد والألفاظ المؤثرة، وفي كل هذا تبدو اللغة سهلة ممتنعة، تنال في نفوسنا مكانة كبيرة؛ لأنها لغة حياتنا التي يجب أن نحياها بصورتها الصحيحة، قال الحسين عليه السلام: «أيها الناس، إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: (مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا حُرْمِ اللَّهِ، نَاكثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، فَلَمْ يَغْيَرْ عَلَيْهِ بِفِعْلٍ وَلَا قَوْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ مُدْخَلَهُ)، أَلَا وَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ، وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ، وَأَظْهَرُوا الْفَسَادَ، وَعَطَلُوا الْحُدُودَ، وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِيءِ. وَأَحْلَوْا حَرَامَ اللَّهِ، وَحَرَمُوا حَلَالَهُ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ غَيَّرَ، قَدْ أَتَيْتَنِي كِتْبُكُمْ. وَقَدِمْتُ عَلَى رَسُلِكُمْ بِيَعْتِكُمْ؛ أَنْكُمْ لَا تَسْلَمُونِي وَلَا تُحَذِلُونِي، فَإِنْ تَمْتَمْتُمْ عَلَى بِيَعْتِكُمْ تَصِيبُوا رَشْدَكُمْ، فَأَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَابْنُ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، نَفْسِي مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَأَهْلِي مَعَ أَهْلِيكُمْ، فَلَكُمْ فِي أَسْوَةِ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَنَقَضْتُمْ عَهْدَكُمْ. وَخَلَعْتُمْ بِيَعْتِي مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، فَلَعْمَرِي مَا هِيَ لَكُمْ بِنُكْرٍ، لَقَدْ فَعَلْتُمُوهَا بِأَبِي وَأَخِي وَابْنِ عَمِي مُسْلِمٍ، وَالْغُرُورُ مِنْ اغْتَرَبَكُمْ، فَحَظُّكُمْ أَخْطَأْتُمْ، وَنَصِيْبِكُمْ ضَيَعْتُمْ، وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، وَبَرَكَاتُهُ»^(٢٠).

هناك علاقة تشاكل تركيبية نحوي في نهايات الجمل في قول الرسول صلى الله عليه

وأله وسلم الذي اختاره الحسين عليه السلام ليكون بداية لخطبته ، مما يجعل انتباه السامع كله مشدودا إليه ، والجمل هي : (مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة الله) ، فالجمل الثلاث كلها تتشابه في البدء باسم الفاعل ثم يليه حرف الجر اللام والاسم المجرور به ، وأخيرا لفظ الجلالة ، وبهذا يوجد تشاكل صوتي بين الجمل المذكورة ، فهي جميعا فيها الوزن الصوتي نفسه الذي يشعر به السامع عندما يقرأ الجمل الثلاث بصوت عالٍ ، ويتزامن مع التشاكل اللفظي تشاكل معنوي ، وهو عليه السلام ، يكمل جملة بجمل تتشابه مع المذكورة بالتشاكل ، قال عليه السلام : (لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن) ، وهناك تشاكل تركيبى نحوي بين الجملتين ، فكلاهما تبدأ بالفعل الماضي ، ثم اسم مضاف لاسم معرف بأل التعريف . ومع علاقات التشاكل هناك علاقة تباين دلالي معنوي تتحقق في لزوم طاعة الشيطان ، وترك طاعة الرحمن ، وتكرر الحالة مرة ثانية في قوله عليه السلام : (أظهروا الفساد ، عطلوا الحدود) ، فالجملتان تبدآن بفعل ماضٍ يليه اسم معرف بأل التعريف وهو تشاكل بالشكل التركيبى ، و(أحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله) ، وهنا تتشابه الجملتان تماما من حيث بداياتهما بفعل ماضٍ ، يليه اسم نكرة مضافة إلى معرفة ، وتباینان بالمعنى وتتعاكسان في المضمون ؛ مما يعطي السامع شعورا بالاهتمام الكبير بما سيقوله المتكلم ، و(نفسى من أنفسكم) ، (وأهلي مع أهلکم) وهاتان الجملتان متماثلتان نحويا وتركيبيا ، فهما تبدآن باسم معرف بالإضافة إلى ضمير ثم حرف وأخيرا اسم معرف بالإضافة إلى ضمير ، وتباین الجملتان من حيث الأفراد والتأنيث ، ثم الجملتان (حظکم أخطأتم) ، (نصيبکم ضيعتم) ، اللتان تبدآن باسم معرف بالإضافة يليه فعل ماضٍ متصل بضمير ، وكل علاقات التباين والتشاكل تحقق دلالات ومعاني تتعلق بالفكرة المعروضة أمام المتلقي ، مما يؤدي إلى تحقيق تشاكل مقطعي تصنعه

موسيقى النص المنشور ، مع وجود التشاكل بالسجع في نهايات الجمل المتشاكلة .
فالحسين عليه السلام كرر التراكيب المتشابهة نحويًا وتركيبًا ، وهو ما حقق تناغمًا نصيًا يثير
فكر السامع ، ويجبره على الانتباه للقول المعروض أمامه .

جمالية المفارقة :

وهي تحدث كل على حدة لكنها تجتمع في النص الإبداعي بشكل لافت للنظر ،
وهي ما وجدناه واضحًا في النص الحسيني ، وتحتاج المفارقة إلى التوضيح والشرح
لتبدو شعرية النص الذي استعملت فيه المفارقة واضحة للعيان ، وهي « ليست
بالظاهرة البسيطة لهذا هناك عقبة رئيسة في تعريفها »^(٢١) ، فالمفارقة تحصل عند
الحديث عن أحداث ينقلها المبدع في حالة خاصة مثل السخرية من الأمور المنطقية
، وهي تحدث تضادًا بين المعنى المباشر لكلام ما ، والمعنى غير المباشر له ، وبهذا يبدو
للكلام معنيان أحدهما سطحي ظاهري ، والآخر عميق باطني لا يظهر إلا بعد
إنعام النظر في النص بما هو أهله^(٢٢) ، وتحقق المفارقة « صيغة من التعبير ، تفترض
من المخاطب ازدواجية الاستماع ، بمعنى أن المخاطب يدرك في التعبير المنطوق
معنى عرفيًا يكمن فيه من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه يدرك أن هذا المنطوق
في هذا السياق بالذات لا يصلح معه أن يؤخذ على قيمته السطحية ، وفي ذلك أن
المنطوق يرمي إلى معنى آخر يجده الموقف التبليغي وهو معنى مناقض عادة لهذا
المعنى العرفي الحرفي »^(٢٣) .

وفي المفارقة نوع من الدلالة المحولة في مقابل الدلالة الأولى ، مما يعطي تصويرًا
آخر للمعنى ، بسبب مفارقة التعبير المنطوق للمعنى المقصود ، الذي يفرضه السياق
عند التعبير عن الموقف الراهن^(٢٤) ، فالمفارقة ليست حالة تعتري الكلام فحسب

بل هي تفسيرات متعددة ، ليس فيها واحدة صحيحة ، فكلها صحيح ، فهي تكون مشتملة بذلك على كل نواحي الحياة ، لأنها « تعبير لغوي بلاغي يرتكز على العلاقة الذهنية بين الألفاظ ، أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو الشكلية التي تربط الألفاظ في النص »^(٢٥) .

وبناء على ما سبق يمكن القول إن المفارقة ترتبط بتحسين الكلام ، وهي تثير المتلقي ، وتدفعه إلى إنعام النظر في النص ومفرداته وألفاظه ؛ لأن المبدع عقد علاقات متضادة بين مفردات النص ، وبهذا يبتعد النص عن المباشرة والقصدية واصلا إلى التلميح والإشارة ، مما يحقق لغة إبداعية تخرجها من المؤلف الشائع إلى غير المؤلف الفريد من نوعه .

ومن يقرأ ما قاله الحسين عليه السلام يلاحظ وجود المفارقة التي تحقق للسامع دهشة وإبهارا قال عليه السلام : « أيها الناس اسمعوا قولي ، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحق لكم عليّ ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم ، فإن قبلتم عذري ، وصدقتم قولي ، وأعطيتموني النصف ، كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وإن لم تقبلوا مني العذر ، ولم تعطوا النصف من أنفسكم (فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم أفضوا إليّ ولا تنظروني)^(٢٦) ، (إنّ وليّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين)^(٢٧) »^(٢٨) ، ففي خطابه عليه السلام إلى الناس يوجههم إلى الاستماع إليه وهذا الأمر لا بدّ أن يحصل بلا توجيه ، فإذا لم يستمع الناس لبقية النبوة المتمثلة بشخص الحسين عليه السلام فلمن سيستمعون إذن ؟! ، يبدأ التناقض في عبارة اسمعوا قولي ، ولا تعجلوني ، فالمفروض عليهم السماع ثم الطاعة ، والمفروض بهم عدم استعجاله عليه السلام ففي قوله الخير والنجاة والصلاح ، ومنه قوله عليه السلام كذلك « أمّا بعد

، فانسبوني فانظرونا (لم نجدها في كلام الإمام عليه السلام) مَنْ أنا ، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها ، فانظروا ، هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ ألسنتُ ابنَ بنتِ نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم وابنَ وصيِّه وابنَ عمه ، وأوَّل المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء به من عند ربِّه ! أو ليس حمزةُ سيِّد الشهداء عمَّ أبي ؟ أو ليس جعفرُ الشهيد الطيَّار ذو الجناحين عمِّي ؟ أو لم يبلغكم قولُ مستفيض فيكم : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ، ولأخي : (هذان سيِّدا شبابِ أهلِ الجنَّة) ! فإن صدَّقتموني بما أقول - وهو الحقُّ - فوالله ما تعمَّدتُ كذبا مُدِّ علمتُ أنَّ الله يمقتُ عليه أهله ، ويضربُ به من اختلقه ، وإن كذبتُموني فإنَّ فيكم من إنَّ سألتُموه عن ذلك أخبركم ؛ سلوا جابرا بنَ عبدِ الله الأنصاري ، أو أبا سعيدِ الخدري ، أو سهلا بن سعد الساعدي ، أو زيدا بن أرقم ، أو أنسا بن مالك ، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم لي ولأخي ، أفما في هذا حاجزٌ لكم عن سفكِ دمي ؟ « (٢٩) » .

فالمتناقضات تبدو بين انسبوني فانظروا ، فليس نسب الحسين عليه السلام بحاجة لأن ينظر إليه أحد ويفكر فيه ، لكن هذا يعطي السامع إجماعاً بخطأ الأمر الذي هم مقبلون عليه ، وقوله فإن صدقتُموني بما أقول ، وهو الحق ، فالحسين عليه السلام يضع أمام السامع صورة استفهامية كبيرة واسعة المدارك ، متكاملة الجوانب ، يتساءل فيها عن سوء أفعال من يعاديه ويؤذيه ، وينهي التساؤلات كلها بسؤال بعد كل الأسئلة المذكورة آنفاً ، وهي كلها من الاستفهام الإنكاري ، والسؤال هو : أفما في هذا حاجز لكم عن سفكِ دمي ؟

كذلك استعان الحسين عليه السلام بأسماء من سمع حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو يذكر أسماء هؤلاء الشهود على أن الحسين عليه السلام الإمام الحسين عليه السلام أكرم الناس بل هو سيد شباب أهل الجنة ، وهو أمر يثير دهشة السامع ،

ليبدو سؤال مهم يجول في ذهنه هو : هل الحسين عليه السلام بحاجة إلى أن يستعين بمن يؤكد مكانته ؟ ومن هنا نتحقق المفارقة في الكلام . فالسامع يقف أمام الكلام فبدايته تنذر بشيء لكن الفكرة المعروضة تذهب بنا مذهبا آخر .

هندسة التشكيل اللغوي :

عند النظر إلى التشكيل اللغوي في نص ما ، فإننا ننظر إلى الجوانب الصوتية والدلالية ، والنحوية والصرفية في ذلك النص ، واضعين أيدينا على حالة تحقق الإفهام في النص الحسيني ، والنظر إلى القرائن التي تضم العناصر المنطوقة ، وأثرها في المتلقي ، وكذلك العناصر غير المنطوقة ، مستفيدين بذلك من قول سعيد بحيري : « إنَّ الإفهام أو التواصل لا يتحقق إذن إلا بوقوع المخاطب على قصد المتكلم من خلال التشكيل اللغوي الذي يضم العناصر المنطوقة والقرائن التي تضم عناصر منطوقة وأخرى غير منطوقة »^(٣٠) ، ويتمكن الناظر في النص الحسيني من الإحساس بالوظائف اللغوية وتكاملها ، فهي جملة من الأدوات التي تحقق ذلك التشكيل مكونا وحدة كلامية تبدو فيها الأجزاء الصغيرة متناغمة الوجود ، وكأنها قطعة من الفسيفساء بديعة الصنع ، يبدو كل جزء محتاجا لما حوله ، ومكملا له ، وسأبدأ بذكر أجزاء التشكيل اللغوي هي :

- زوايا التشكيل الصوتي :

الأصوات أدوات مهمة تؤلف بنية النص في أصغر وحداته ، ومن خلالها يمكن إدراك الترابط بين أجزائه ، و« يتبين أن النظام اللغوي والاستعمال السياقي جميعها في اللغة العربية يستخدمان التشكيل الصوتي في التمييز بين المعاني النحوية »^(٣١) ، ولما

كان النص الحسيني موزعاً بين الرسائل والخطب ، والرسائل تقرأ بصوت مسموع على الملأ ، فإن الجانب الصوتي بات شيئاً مهماً ، ولعل من أهم الأمور المتعلقة بذلك الجهر والهمس : ويمكن دراستها بالاعتماد على حالة التكرار التي تعترها ، متبھين إلى حالة الإيحاء التي يؤديها وجود الصوت في مكان معين لا غيره ، « ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون للأصوات المفردة معانٍ بذاتها ، ولكنها تكتسب تلك المعاني من وجودها في السياق الذي يصبغها بلونه ، بالإضافة إلى لونها وطبيعتها النطقية والسمعية » (٣٢).

فنص الرسالة التي كتبها الحسين عليه السلام لأهل البصرة ، يوجه النظر إلى حروف الجهر والهمس ، ويمكن عندها معرفة الدلالات المهمة فيه ، قال عليه السلام : « أمّا بعد ، فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على خلقه ، وأكرمه بنبوته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه الله إليه ، وقد نصح لعباده ، وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وآله وسلم ، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحقّ الناس بمقامه في الناس ، فاستأثر علينا قومنا بذلك ، فرضينا وكرهنا الفرقة ، وأحببنا العافية ، ونحن نعلم أنّا أحقّ بذلك لمستحقّ علينا من تولاه ، وقد أحسنوا وأصلحوا ، وتحجروا الحق ، فرحمهم الله ، وغفر لنا ولهم ، وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنّ السنة قد أميتت ، وإنّ البدعة قد أحييت ، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري ، أهدكم سبيل الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله » (٣٣).

وتغلب الأصوات المجهورة على الأصوات المهموسة ، وهذا الأمر يحقق بعض الدلالات عندما نربط الصوت بالقوة التي يؤدي بها ، محققاً السياق المطلوب

، وشارحا الموقف الذي مرّ به الحسين عليه السلام ، ولا بدّ من ذكر الأصوات المجهورة في رسالة الحسين عليه السلام كانت كثيرة بشكل واضح للناظر إليها ، فلا نجد في السطر الكامل من الأصوات المهموسة سوى حرف أو حرفين في مقابل الأصوات المجهورة ، مع ملاحظة أن الأصوات المهموسة كانت تتمثل بحرف الهاء الذي يمثل زفيرا للعبرات من داخل النفس إلى الخارج ، وقد كان الحسين عليه السلام - عندما أرسل هذه الرسالة - يرى أنها ستقرأ على رؤوس الأشهاد ، ونظرا لظفرته اللغوية ، جاء هذا التراكم للحروف المجهورة في الخطبة ، وهي حروف مؤثرة في السامع ، وتلفت نظره إلى ما سيقوله المتكلم ، ومصدّق ذلك أنه أرسلها للأشراف في مدينة البصرة ، ونقرأ بعدها تعليقا لصاحب الكتاب قائلا : « فكلُّ من قرأ ذلك الكتاب من أشراف الناس كتّمه ، غير المنذر بن الجارود » ^(٣٤). ونفهم من العبارة المذكورة أنّنا أن المفروض بالرسالة أن تقرأ علنا .

ويمكن إيجاد هذا الأمر واضحا في نص آخر من نصوص الطف ، من ذلك عندما أقبل الحسين عليه السلام مارا بالتنعيم ، فلقني « بها عيرا قد أُقبل بها من اليمن : بعث بها بجير بن ريسان الحميري إلى يزيد بن معاوية - وكان عامله على اليمن - وعلى العير الوُرس والحلّل ينطلق بها إلى يزيد فأخذها الحسين ، فانطلق بها ، ثم قال لأصحاب الإبل : لا أكرهكم ، من أحب أن يمضي معنا إلى العراق أوفينا كراءه ، وأحسننا صحبته ، ومن أحب أن يفارقنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكراء على قدر ما قطع من الأرض ، قال : فمن فارقه منهم حوسب فأوفي حقه ، ومن مضى منهم معه أعطاه كراءه وكساه » ^(٣٥).

نلاحظ في هذا النص زيادة حروف همس على حساب الحروف المجهورة ،

وما هذا لسبب محدد إلا لأن هذا الجواب الحسيني الرائق ، جاء في مخاطبة من يود مرافقته عليه السلام إلى إحدى الحسينيين ، وهو أمر يبدو واضحا من تكرار الحرفين ، الكاف والسين وغيرهما من حروف الهمس ، وبهذا نلاحظ فاعلية حروف الهمس كما ونوعا ، وهذا أعطى النص انسجاما وتوافقا مع غرضه ، فالحسين عليه السلام أراد إسراع صوته لمن يخاطبهم ، ولكن هذا الخطاب حقق نمطا كبيرا من الإقناع بموقف الحسين عليه السلام ، وليس هذا حسب ، بل إن كل كلمة من كلمات النص تنسجم صوتيا مع دلالتها المرجوة من هذا النص ، ولا يبدو هذا الأمر جليا إلا إذا وضعت الكلمات في سياق الكلام كله .

وتشكل عناصر التركيب الصوتي جزءا من عناصر التركيب بشكل عام ، وهي تشمل على التراكيب الصوتية والنحوية والدلالية ، وهي بهذا تؤلف شبكة من العلاقات المتنافسة التي لا تتوافر في اللغة وحدها ، فالكلمة والعبارة ، والشكل اللغوي الدال أمور تدخل كلها في ألوان متنوعة من التشكيل ، لتشكل بذلك أنطا من البنى اللغوية ، وتحدث تناسقا عاما في الأصوات والدلالات وأنطاطها التركيبية (٣٦) .

ويتحقق الانسجام الدلالي بوجود الصوت في بنية الكلمة وأثره في وجودها في سياقها العام ، وتلاحمها مع غيرها من الكلمات في النص ، وهي علاقة تختزن الأفكار والنظرة الشمولية للنص كله ، ومن هنا لا بد من النظر إلى التشكيل الصوتي في النص ، الذي يحدث تأثيرا غير واعٍ للصوت ، فهو يوحى برؤية المبدع ، والمطلوب بعدها سيكون النظر إلى التناغم بين التشكيل الصوتي ، وبنية النص ، ويظهر ذلك من خلال البنى التركيبية التي تؤثر في النص وتشكله ؛ لأنها أداة لغوية

ميسرة يمتلك المبدع ناصيتها ؛ ليوظفها بيسر وسهولة ، وظهرت ملامح التشكيل اللغوي في النص الحسيني في أنماط عدة منها : التقديم والتأخير ، من ذلك كتاب الحسين عليه السلام عندما أقبل إلى الكوفة قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلامٌ عليكم ، فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعدُ ، فإنَّ كتابَ مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم ، واجتماعِ ملئكم على نصرنا ، والطلبِ بحقنا ، فسألتُ الله أن يُحسنَ لنا الصُّنعَ ، وأن يثيبكم على ذلكَ أعظمَ الأجرِ ، وقد شخصتُ إليكم من مكةَ يومَ الثلاثاءِ لثمانٍ مضيئٍ من ذي الحجةِ يومَ الترويةِ ، فإذا قدّمَ عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدوا ، فإني قادمٌ عليكم في أيامي هذه إن شاء الله ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته ” (٣٧)

والحسين عليه السلام استعمل التقديم في أماكن عدة منها تقديم الجار والمجرور ، أي مكملات الجملة على المفعول به في قوله (فإني أحمد إليكم الله) ، وتقديم الصفة على الموصوف في يخبرني فيه بحسن رأيكم ، والأصل رأيكم الحسن ، وقوله فسألتُ الله أن يُحسنَ لنا الصُّنعَ فالتأخير حاصل في كلمة الصُّنع ، ثم تقديم الصفة على الموصوف في قوله عليه السلام : (يثيبكم على ذلك أعظم الأجر) وهي الأجر العظيم ، وتقديم مكملات الجملة إليكم في جملة (وقد شخصت إليكم من مكة) والجملة (شخصت من مكة إليكم). وبعادة النظر إلى النص الحسيني نلاحظ أن الحسين عليه السلام بفطرته اللغوية يتجاوز المعيارية ليحقق إبداعا لغويا يؤثر في المتلقي ، ويرتب أفكاره ، بل يغير مسار حياته وهذا الأمر ساري المفعول حتى يومنا ، فيمكننا إذا ما اتبعنا نهج الحسين عليه السلام أن نحقق نجاحا على الصعيد الإنساني ، وتفوقا على الصعيد الديني .

أسلوب النهي بين الشدة واللين:

ظهر أسلوب النهي في النصوص الحسينية ظهوراً يدعو إلى التأمل ، فقد ظهر بعد كلام كثير فيه سلوان ، ورحمة وشفقة على قلب من يسمعه ، ثم يأتي النهي لكنه لا يحقق حالة الرفض ، أو يسخرها ، وإنما هو يوثق حالة الإيمان ، قال الحسين عليه السلام مخاطباً أخته زينب (عليها السلام) عندما قالت له : واثكلاه ! ليت الموت أعدمني الحياة ! اليوم ماتت فاطمة أُمي وعليّ أبي وحسن أخي ، يا خليفة الماضي ، وثمان الباقي !

قال : فنظر إليها الحسين عليه السلام فقال : يا أختي ، لا يذهبن حلمك الشيطان ، قالت بأبي أنت وأُمي يا أبا عبد الله ! استقتلت.. نفسي فذاك ، فرد غصته ، وترقرت عيناه ، وقال : لو ترك القطا ليلا لنا ، قالت : يا ويلتي ، أفتغصب نفسك اغتصابا ، فذلك أفرح لقلبي ، وأشدّ على نفسي ! ولطمت وجهها ، وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشياً عليها ، فقام إليها الحسين عليه السلام ، فصبّ على وجهها الماء ، وقال : يا أختي ، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأنّ أهل السماء لا يبقون ، وأنّ كلّ شيء هالكٌ إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته ، ويبعث الخلق بقدرته فيعودون ، وهو فردٌ وحده ، أبي خير مني ، وأُمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة ، ... يا أختي ، إني أقسم عليك فأبري قسمي ، لا تشقي عليّ جيبا ، ولا تخمشي عليّ وجهها ، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت ، قال : ثم جاء بها حتى أجلسها عندي ، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض ، وأنّ يدخلوا الأطناب بعضها في بعض ، وأن يكونوا هم بين البيوت إلا الوجه الذي يأتيهم منه عدوهم ^(٣٨).

فالنهي في قوله عليه السلام: (لا تشقي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور)، لكن على الرغم من أن أسلوب النهي فيه ردع وقوة، إلا أننا نلاحظ الرحمة والشفقة تتجلى فيه، وجاء أسلوب النهي مكثفاً لخصوصية عبارة الحسين عليه السلام عند اختيار موضع النهي، فقد ألحقه بالقسم على أخته، ومحاولة أخذ وعد بأن تنفذ هذا الوعد. وجاء النهي محورا للنص الحسيني كله، يدور حوله، ويكمل مضمونه الأليم.

أسلوب الاستفهام وتلاؤمه مع المعرفة الحسينية الشاملة:

وأسلوب الاستفهام؛ هو محور النص الحسيني، تدور حوله كل المعاني التي يجدها المتلقي واضحة أمامه، ويتجلى ذلك في قوله عليه السلام: «أما بعد، فانسبوني فانظروا؛ هل يحلّ قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألسنتُ ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم وابن وصيه وابن عمّه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربّه! أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أو ليس جعفر الشهيد ذو الجناحين عمّي؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله، قال لي ولأخي: «هذان سيّدا شباب أهل الجنة»! فإن صدقتُموني بما أقول - وهو الحق - فوالله ما تعدّدتُ كذبا مذ علمتُ أنّ الله يمقتُ عليه أهله، ويضربُ به من اختلقه، وإن كذبتُموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم؛ سلوا جابرا بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهلا بن سعد الساعدي، أو زيدا بن أرقم، أو أنسابنا مالك؛ يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي، أفما في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي؟» (٣٩).

وعلى الرغم من وجود أسلوب الاستفهام ورد أسلوب الأمر مرادفاً ومساعداً

له ، وبهذا يبدو الكلام مبنيًا على محورين مهمين مبدوءًا بأفعال ثلاثة هي : انسبوني ، أنظروا ، سلوا ، وكان ورودها مكثفًا يحقق غاية مهمة ينبني عليها النص نفسه ، فبداية النص قوله انسبوني ، ثم انظروا ثم ارجعوا ، هي مراحل حض على التفكير ، ثم تأكيد حقيقة مهمة ، هي : ثم الرجوع إلى الحق ، وبعد ذلك يبدأ الحسين عليه السلام ، بإعادة الأفعال المكثفة بشيء من التفصيل ، فيذكر النسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله ، ويذكر أعمامه ، وفضلهم على الناس ، ثم يذكر صفاته التي جعلها الله سبحانه وتعالى ميزات له عليه السلام تميزه من كل الناس ، وأخيرًا يذكر مكانته المهمة وأن له حرمة عند الله سبحانه وتعالى ، تحرم عليهم قتله . لكن أسلوب الأمر جاء مقترنًا بالاستفهام الإنكاري ، الذي يعطي تعزيزًا للكلام الذي نجده في النص الحسيني .

ويقرن أسلوب الأمر في النص الحسيني بالاستفهام الإنكاري الذي يأتي بنسبة أكبر من ورود الأساليب الباقية ، وهو يتحدد بنوعية الاستفهام الإنكاري ، وليس الاستفهام الذي يطلب الجواب عليه ، وهذا يعطي إحساسًا أن المخاطبين الذين يوجه الحسين عليه السلام لهم كلامه يعرفون جيدًا صدق صاحبه ومكانته في الدنيا والآخرة ، لكن استعمال الاستفهام الإنكاري كان لأن الحسين عليه السلام يوجه كلامه للناس على مدى الدهور ، لذا يمثل الاستفهام الإنكاري ملمحًا واضحًا في النص الحسيني ، يأخذ مساحات واسعة فيه ، ومن هنا صار يمثل محاجة تتأرجح بين العقل والعاطفة ، وغالبًا ما يغلب العقل العاطفة ، مختزلًا حالة حشد للأدلة التي توثق المطلوب من النص ، فإذا أعدنا قراءة النص الحسيني مرة ثانية ، نلاحظ ذلك في قوله عليه السلام متسائلًا :

هل يحل قتلي وانتهاك حرمتي؟

ثم يردفه بسؤال آخر هو: أأنت ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم وابن وصيه وابن عمّه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربّه!

ثم يتبعه بسؤال آخر هو: أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟

وسؤال آخر هو: أو ليس جعفر الشهيد ذو الجناحين عمّي؟

وسؤال آخر هو: أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله، قال لي ولأخي: «هذان سيّدا شباب أهل الجنة»!

وهو عندما يذكر هذه الأسئلة يحاول أن يقنع السامع بما يقول، ولا أعني السامع الذي يوجه الحسين عليه السلام كلامه له، وإنما للناس كلهم إلى يوم القيامة. وبعد عرض الأسئلة والأدلة يكمل كلامه بقوله: فإن صدّقتُموني بما أقول - وهو الحق - فوالله ما تعمّدت كذباً مذ علمتُ أن الله يمقت عليه أهله، ويضرب به من اختلقه، وإن كذبتُموني فإن فيكم من إن سألتُموه عن ذلك أخبركم؛ سلوا... وعندما يشعر أن لم يصدقوه يحيلهم إلى من يرى أنهم سيصدقون كلامهم عنه عليه السلام. والاستفهام بهذا يمثل ملمحاً واضحاً في النص، ويحقق جدالاً بين العقل والعاطفة، لكن الغلبة في النهاية تكون للعقل؛ لأن الاستفهام يختزن شحنة من العاطفة المتأتية من استحضار أمور مهمة هي: ذكر صلة القرى، واستمرار استحضارها، والاستفهام موظف بشكل منسجم مع النص ويحقق دوراً مهماً في بنائه، والاستفهام هنا إنكاري، فهو يحقق كما هائلاً من الندب للتراجع عن الاندفاع نحو الباطل، والاتجاه نحو الحق، والنظر إلى الماضي؛ لكونه مشحوناً بدوافع الترك والرفض، قال الحسين عليه السلام: «

فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أثرا ما ، أي ابن بنت نبيكم ؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ، ولا غيركم ، أنا ابن بنت نبيكم خاصة ، أخبروني : أتطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو مال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحه ؟ ... ألم تكتبوا أن قد أينعت الثمار ، وأخضر الجناب ، وطمت الجمام ، وإنما تقدّم على جندك مجنّد » (٤٠).

وعند النظر إلى النص الحسيني نلاحظه قد وظفت فيه الأساليب اللغوية ، ثم القدرة على التنويع الذي يحقق تنبيها مهما للمتلقي أن ما يقرأه هو نص مخصوص ، مثال ذلك نلاحظ أن الاستفهام الإنكاري كان يمثل نهيا وتحذيرا من مغبة الأمور ، وعواقبها في حال عدم الامتثال لأمر الحسين عليه السلام .

أسلوب النفي ودوره في الإقناع :

نجد الإمام الحسين عليه السلام يستحضر أسلوب النفي متمحورا على مسألة طلب الدم ، التي ليس لها مسوغ في الواقع ، قال عليه السلام ، مخاطبا قيس بن الأشعث عندما قال له عليه السلام : « أو لا تنزل على حكم بني عمك ، فإنهم لن يروك إلا ما تحب ، ولن يصل إليك منهم مكروه ؟ فقال الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ، لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبيد ، عباد الله ، إني عدت بربي وربكم أن ترجمون ، أعود بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، ثم قال : ثم إنه أناخ راحلته ، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها ، وأقبلوا يزحفون نحوه » (٤١).

ويرد أسلوب النفي في النص الحسيني محوري الوجود ، مثال ذلك قول أبي مخنف : فلما رموهم هذه الرمية ، قال أصحاب الحسين عليه السلام ، فبقي في هؤلاء القوم الذين

يذكرون في المبارزة، وقد قتل منهم ما ينيف على خمسين رجلا، فعندما ضرب الحسين عليه السلام بيده إلى لحيته، فقال: هذه رسل القوم، يعني السهام، ثم قال: اشتد غضب الله على اليهود والنصارى إذ جعلوا له ولدا، واشتد غضب الله على المجوس إذ عبدت الشمس والقمر والنار من دونه، واشتد غضب الله على قوم اتفقت آراؤهم على قتل ابن بنت نبيهم والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدونه أبدا، حتى ألقى الله وأنا مخضب بدمي، ثم صاح عليه السلام، أما من مغيث يغيثنا لوجه الله تعالى؟ أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟ «^(٤٢)». ونجد مصداق ذلك فيما حصل بعدئذٍ " فلما سمع الحر بن يزيد هذا الكلام، اضطرب قلبه، ودمعت عيناه، فخرج باكيا متضرعا، مع غلام له تركي "^(٤٣)، فدفع مسوغات القتل وعدم وجود ما يستدعي ضمنا رفض الصلح، والتنازل عن الحقوق، فالنفي هنا يتضمن النهي، ورفض الخضوع للباطل، ومن هنا نجد أن الأساليب المختلفة تضامنت فيما بينها، فالاستفهام الإنكاري، والنهي، والأمر والنفي كلها شكلت نسقا حواريا^(٤٤)، ينسجم مع قضية الحسين عليه السلام، والانسجام كونه نقطة التقاء بين لغة النص، وقضية الحسين عليه السلام الخالدة ورؤيته لمكانته الحقيقية بين المؤمنين، وأسلوب النص غالبا يحدد طبيعة الفكر الأدبي وهذا التداخل وارد الحدوث في النصوص الأدبية.

حتمية التقابل السياقي:

ويظهر التقابل بين المفردات ظهوراً لافتاً، فقد لا تكون أضدادا، وإنما تكون متقابلة دلاليا، وهذا الأمر واضح في مجمل النص الحسيني، قال الحسين عليه السلام: «أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: (مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحْلًا حُرِّمَ اللَّهُ، نَاكِثًا لِعَهْدِ اللَّهِ، مُخَالِفًا لِسُنَّةِ اللَّهِ، يَعْمَلُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ

والعدوان ، فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قولٍ ، كان حقًا على الله أن يدخله مُدخله) ،
 ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعةَ الشيطان ، وتركوا طاعةَ الرحمن ، وأظهروا الفسادَ ،
 وعطلوا الحدودَ ، واستأثروا بالفيءِ ، وأحلوا حرامَ الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحقُّ
 من غيرٍ ، قد أتتني كتبكم . وقدمتُ عليّ رسلُكم ببيعَتكم ؛ أنكم لا تسلموني ولا
 تخذلوني ، فإنّ تمتمت على بيعتكم تصيبوا رُشدكم ، فأنا الحسينُ بن عليّ ، وابنُ فاطمة
 بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نفسي من أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم
 ، فلکم في أسوةٍ ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم ،
 فلعمري ما هي لكم بئکر ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابنِ عمي مسلم ، والغرورُ
 من اغترّ بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على
 نفسه ، وسيُغني الله عنكم ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته " (٤٥) .

لو قرأنا هذا النص سنجد أموراً تتحقق في مجمل النص الحسيني ، لهذا اخترت هذا
 النص وما فيه مثال صالح للتطبيق دال إلى الفكرة نفسها في الخطاب الحسيني كله .

- لزموا - تركوا ، قابل (لبيك) بين فعل ماضٍ وآخر ماضٍ مثله مع تضاد المعنى .

الشيطان - الرحمن ، قابل (لبيك) بين اسم واسم مع تضاد المعنى .

أحلوا - حرّموا ، قابل (لبيك) بين فعل ماضٍ وآخر ماضٍ مع تضاد المعنى .

حرام الله - حلاله ، قابل (لبيك) بين تركيب مكون من اسم معطوف ، واسم معطوف
 عليه ، وتركيب آخر له التركيب نفسه مع تضاد المعنى .

نفسى - أنفسكم ، قابل بين تركيبين مؤلفين من مضاف ومضاف إليه مع اختلاف
 الضمائر بين ضمير متكلم وآخر مخاطب مما أعطى معنى التضاد .

أهلي - أهليكم ، والحال نفسها التي حصلت فيما سبق حصلت في هذا التركيب نفسه .

نكث - ينكث ، وهنا التركيب متضاد في الزمن ، فالكلمة الأولى فعل ماضٍ في حين الثانية فعل مضارع .

يشير التقابل السياقي في معظمه إلى حالة التحول من حال إلى حال غيره ، مختزنا التحول في كل القضايا التي عرضتها آنفا من المفارقة ، والرفض ، والرجاء ، والاستفهام والنفي وغيرها ، ويظهر التقابل على مستوى القيمة من خلال طرفي النص ، فقد بدأه بنص حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي أوضح فيه حال شخص رأى سلطانا جائرا ، لكنه لم يحاول أن يقف بوجهه ، أو يغير سلوكه بفعل أو قول ، وكان الأجدى بمن سمع هذا القول أن يتجنب الاشتراك بالخطأ نفسه ، فلا يكون مثل هذا الشخص ، لكن ما وجدته الحسين عليه السلام ، كان على الضد من ذلك فقد وجد كثيرا من القوم يتتهجون هذا المنهج ، ويسرون على هذا الطريق نفسه . ، ومن هنا يشيع في النص الحسيني أسلوب التقابل والاختلاف ؛ ليعلن حالة التضاد التي تتحقق المفارقة والاختلاف بين الحالين . ونجد الحسين عليه السلام اتخذ موقف الرفض الذي حدد بالضبط موضع العلة ، قال عليه السلام : ومن نكث فإنها ينكث على نفسه ، وهنا سيتحدد المطلوب من الكلام من خلال قوله عليه السلام : وسيغني الله عنكم وهنا تتجلى معاني الرجاء والتعلق بالله سبحانه وتعالى .

إمكانية الحذف والتواصل مع المعنى بشكل سلس :

الحذف تقنية يستعملها المبدع لإضفاء لمسة بلاغية توحى للمتلقي بمعانٍ كثيرة

، وتوصل له مخزونا مكثفا من الأفكار والمضامين التي تحرك مشاعره وأحاسيسه نحو الأفضل ، والحذف ينتج نصا موازيا يحسن القارئ فهمه إذا ما أنعم النظر إليه ، والحذف يحدث فراغا يملؤه المتلقي ، فللغة بنية وبنيتها ليست بنية العالم الواقع خارج العقل^(٤٦) ، وعند النظر إلى المحذوف من النص سيكون النص المحذوف نصا آخر يتجسد من خلال مخزون القارئ المعرفي ، ويشكل الحذف ملمحا للتشكيل اللغوي ، والنص الواحد يشكل مبنى و« المبنى الواحد متعدد المعنى ومحتمل كل معنى مما نسب إليه وهو خارج السياق ، أما تحققه بعلامة في السياق ، فإن العلامة لا تفيد إلا معنى واحدا تحدده القرائن اللفظية والمعنوية »^(٤٧).

ويبدو أسلوب الحذف في النص الحسيني متلائما مع حدثه ، وسأختار أنموذجا واحدا لبيان هذا الأمر ، هو دعاؤه عليه السلام وقت الصباح في يوم عاشوراء ، قائلا : « اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، وأنت رجائي في كل شدة ، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو ، أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عن سواك ، ففرجت عني وكشفته ، فأنت ولي كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة »^(٤٨).

يبدو الحذف متحققا في النداء عند القول اللهم أي حرف النداء (يا) ، ثم يقول أنت ثقتي في كل كرب أي في كل كرب أمر به ، وأعانيه ، ثم في كل شدة أمر بها ، وهنا نجد حذفاً مضمونه شيوع الفرج بعد الهم الذي يمر به الإنسان ويضعف فيه فؤاده ، وعندها تقل حيلة من يمر بالشدة ، ونجد الحذف بعد ويخذل الإنسان فيه صديقه ، ونجد الحذف في عندما يحصل ذلك يخذل الصديق ويشمت العدو ، وهنا الحذف يكون في (الهم أنزلته بك) ، والحذف في حصل هذا الأمر رغبة مني إليك

، ثم الحذف في وعندما فرجت همي وكشفته أيقنت أنت ولي كل نعمة ، ويكون التعويض بعبارات أو كلمات أخرى ، وهذا كله يشكل نصا مقابلا للنص المذكور يشعر القارئ بعبقرية اللغة التي هو بصدد قراءة كلماتها ؛ للوصول إلى مضامينها الرائعة ، فكل هم يليه فرج ، وكل شدة تليها انفراجة ، وكل فقد يليه تعويض من مكان آخر .

وهذا ينبه الحذف في النص الحسيني على مقدرة لغوية توضح استيعاب النص النظام اللغوي بطبيعته المألوفة ، وينقله إلى حيز الإبداع مما يجعل الكلام مدركا بأبهى حلة ، ومن ينظر إلى النص الحسيني يرى نصا متجاوزا حدود الزمان والمكان واصلا إلى حالة الخلود ؛ باقيا دستورا للأمة إلى قيام الساعة .

خاتمة البحث :

عند قراءة الخطب والرسائل التي قالها الحسين عليه السلام في واقعة الطف ، نجد أنها تضم مضامين مهمة على الصعيدين اللغوي والمعنوي ، تبدأ من الشكل اللغوي ، ليؤثر فيما بعد بالمعنى ؛ لتبقى على مرّ الدهور مدرسة للوعظ والإرشاد ، وطريقا للتربية والإصلاح .

وهناك مميزات مهمة في النص الحسيني تتجلى في كثافة الوحدات النصية التي تصف الواقع ، بل هي تصف العالم الذي تشكّل من حول الحسين عليه السلام في ذلك الوقت ، ولكن تلك الوحدات تمتاز بكونها مقتصدة وقليلة ، لكنها تمتلك مخزونا يظهر متكاثرا على الصعيدين الدلالي والشكلي . وهناك تلاحق في وظائف التراكيب ، مما يولد اختصار زمن الإحاطة بالشكل الذي تتطلع إليه عيون المتلقي في مقابل

طول زمن إدراك المضمون الذي يتعلق بذهنه ، وتتجلى هذه الخصيصة في النص الحسيني بشكل عام ، والنص الحسيني يُدخِل من يقرأه في حالة استسلام لخياله ؛ لأنه حين يدرك قدسية مضامينه ، يكون قد دخل في النص واتحد معه ، وعاش في ظلال ألفاظه التي تبدو مفعمة بكثير من المعاني البنّاءة .

ويتحقق التشاكل والتباين بشبكة من العلاقات الدلالية المتلاحمة سواء أكانت بنيوية ، أم دلالية ، أم تعبيرية ، أم علاقات تشابه أو اختلاف . ونجد آلية أخرى تتحقق في المفارقة التي توجد في الدلالة المحولة في مقابل الدلالة الأولى للنص ، مما يعطي تصويراً آخر للمعنى ، والمفارقة ليست مجرد حالة تعتري الكلام بل هي تفسيرات متعددة ، والمفارقة ترتبط بتحسين الكلام ، وهي تثير المتلقي ، وتدفعه إلى إنعام النظر في النص ومفرداته وألفاظه ؛ لأن الحسين عليه السلام عقد علاقات متضادة بين مفردات النص ، وبهذا ابتعد نصه عن المباشرة والقصدية واصلاً إلى التلميح والإشارة ، فحقق لغة إبداعية اخرجته من المؤلف الشائع إلى غير المؤلف الفريد من نوعه .

وظهرت أجزاء التشكيل اللغوي من خلال أمور مهمة منها : التشكيل الصوتي ، أسلوب النهي ، أسلوب الاستفهام ، والاستفهام الإنكاري ، أسلوب النفي ، التقابل السياقي ، الحذف ؛ وهذه كلها تتحقق نصاً إبداعياً يلفت انتباه المتلقي ، بل هو يغير حياته نحو الأفضل إذا ما اتخذ النص الحسيني منهاجاً للحياة ، وسبيلاً للعيش الرغيد .

هوامش البحث :

- (١) موسوعة مقتل الإمام الحسين عليه السلام، السيد عبد الرزاق المقرم، دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ : ٩٣.
- (٢) م. ن : ٥٥.
- (٣) لسان العرب : مادة كرا .
- (٤) الأحزاب : ٢٣.
- (٥) مقتل الحسين بن علي عليه السلام، برواية أبي مخنف، لوط بن يحيى بن سعيد الغامدي الأزدي الكوفي المتوفى سنة ١٥٧هـ، منشورات الجمل بيروت - بغداد، ٢٠٠٩م : ٦٩.
- (٦) لسان العرب : مادة نزل .
- (٧) مقتل الحسين بن علي عليه السلام : ٦٦.
- (٨) لسان العرب : مادة نكر .
- (٩) م. ن : مادة مرر .
- (١٠) مقتل الحسين بن علي عليه السلام : ١٩.
- (١١) م. ن : ٨١.
- (١٢) الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، غريب إسكندر، ط ١، بغداد، ٢٠٠٩م : ٩٦-٩٧.
- (١٣) م. ن : المكان نفسه .
- (١٤) تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، د. محمد مفتاح : ٢٤.
- (١٥) ينظر م. ن : ٢٣-٢٤.

(١٦) م. ن : ٧١.

(١٧) ٧٥٠ قصّة من حياة الإمام الحسين عليه السلام ، جمع وإعداد حسين تاج ، دار الجوادين ، ط ٢ ، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م : ٢٨.

(١٨) مقتل الإمام الحسين بن علي : ١٩.

(١٩) شعرية القصيدة ، قصيدة القراءة ، تحليل مركب لقصيدة أشجان إيمانية ، د. عبد الملك مرتاض : ٤٢.

(٢٠) مقتل الإمام الحسين بن علي : ٦٦.

(٢١) المفارقة وصفاتها ، دي. سي. ميويك ، تر: د. عبد الواحد لؤلؤة ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، سلسلة الكتب المترجمة ، ١٩٨٢ : ١٢٥.

(٢٢) المفارقة الأسلوبية في مقامات الهمذاني ، رسالة ماجستير ، يبرير فريجة ، جامعة قاصدي مرباح ، ورفلة ، الجزائر ، ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ : ١٠.

(٢٣) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة ، د. محمد العبد ، دار الفكر العربي ، مطبعة الأمانة ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م : ١٥.

(٢٤) ينظر م. ن : ١٧.

(٢٥) بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ، سعيد شوقي ، دار ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة - مصر ، ط ١ ، ٢٠٠١ م : ٧٣.

(٢٦) يونس الآية : ٧١.

(٢٧) الأعراف ، الآية : ١٩٦.

(٢٨) مقتل الإمام الحسين بن علي : ٩٤.

(٢٩) م. ن : المكان نفسه .

- (٣٠) دراسات لغوية تطبيقية بين البنية والدلالة، سعيد حسن بحيري، القاهرة - مصر، مكتبة الآداب، ط ١، ٢٠٠٥م: ٢٦٤.
- (٣١) من قضايا اللغة، د. مصطفى النحاس، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، ط ١، ١٤١٥-١٩٩٥: ٨٩.
- (٣٢) الأسلوبية الصوتية، محمد صالح الضالع، دار غريب للطباعة والنشر، مصر - القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢: ٣٠.
- (٣٣) مقتل الإمام الحسين بن علي: ١٩.
- (٣٤) م. ن: المكان نفسه.
- (٣٥) م. ن: ٥٥.
- (٣٦) ينظر: الأسلوبية منهجا نقديا، محمد عزام، دمشق - سوريا، وزارة الثقافة، د. ط، ١٩٨٩م: ٣٩.
- (٣٧) مقتل الإمام الحسين بن علي: ٥٨.
- (٣٨) م. ن: ٨٨.
- (٣٩) م. ن: ٩٤.
- (٤٠) م. ن: ٩٥.
- (٤١) م. ن: المكان نفسه.
- (٤٢) م. ن: ١٠٠.
- (٤٣) م. ن: ١٠١.
- (٤٤) ينظر: مناهج النقد المعاصر، د. صلاح فضل: ١٠٥.
- (٤٥) مقتل الإمام الحسين بن علي: ٦٦.

- (٤٦) الشفاهية والكتابية ، والترج أونج ترجمة : د. حسن البنا عز الدين ود. محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة (١٨٢) ، الكويت ، ١٩٩٤ م : ٢٣٤ .
- (٤٧) اللغة العربية ، معناها ومبناها ، د. تمام حسّان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة - مصر ، ط٢ ، ١٩٧٩ م : ١٦٥ .
- (٤٨) ٧٥٠ قصّة من حياة الإمام الحسين عليه السلام : ٢٣٤ .

- مصادر البحث ومراجعته :

- القرآن الكريم .
- اللغة العربية، معناها ومبناها، د. تمام حسان ، الهياة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر ، ط ٢، ١٩٧٩م.
- الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي ، غريب إسكندر ، ط ١، بغداد، ٢٠٠٩ م .
- الأسلوبية الصوتية ، محمد صالح الضالع ، دار غريب للطباعة والنشر ، مصر - القاهرة ، ط ١، ٢٠٠٢ .
- مقتل الحسين بن علي عليه السلام ، برواية أبي مخنف ، لوط بن يحيى بن سعيد الغامدي الأزدي الكوفي المتوفى سنة ١٥٧هـ ، منشورات الجمل بيروت - بغداد، ٢٠٠٩ م .
- المفارقة الأسلوبية في مقامات الهمذاني ، رسالة ماجستير ، بيرير فريجة ، جامعة قاصدي مرباح ، ورفلة، الجزائر، ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ .
- المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة ، د. محمد العبد، دار الفكر العربي ، مطبعة الأمانة ، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .
- المفارقة وصفاتها، دي. سي. ميويك ، تر: د. عبد الواحد لؤلؤة ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ، سلسلة الكتب المترجمة، ١٩٨٢ .
- مناهج النقد المعاصر ، د. صلاح فضل ، دار الآفاق العربية ط ١، ١٩٩٧م .
- من قضايا اللغة ، د. مصطفى النحاس ، مطبوعات جامعة الكويت ، الكويت ، ط ١ ، ١٤١٥ - ١٩٩٥ .
- موسوعة مقتل الإمام الحسين عليه السلام ، السيد عبد الرزاق المقرم ، دار المرتضى ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٩هـ .
- ٧٥٠ قصة من حياة الإمام الحسين عليه السلام، جمع وإعداد حسين تاج، دار الجوادين ، ط ٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .
- شعرية القصيدة ، قصيدة القراءة ، تحليل مركب لقصيدة أشجان إيمانية ، د. عبد الملك مرتاض ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٤ - ١٩٩٤ .
- الشفاهية والكتابية ، والترج أونج ، ترجمة : د. حسن البنا عز الدين ود. محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة (١٨٢) ، الكويت ، ١٩٩٤م .